

سمات العطاء الأدبي والفكري

في القرن الثامن الهجري

الأستاذ هلال ناجي

بدأ الغزو في القرن الثامن الهجري الفرنجي الصليبي عام ٤٨٨ هـ وانتهى عام ٦٩٠ هـ ، أي أنه جاوز القرنين دكّ خلاله المغول أسوار بغداد قادمين من المشرق ودمّروا حضارة العراق سنة ٦٥٦ هـ ، وانطلقوا نحو بلاد الشام عاصفين بإرثنا الأدبي والعلمي والحضاري . وهكذا كان المشرق العربي نهباً لغزاة محتلين من غربه وشماله وشرقه . وتحالف التتار والفرنج والكرج والروم غير مرة لاحتلال أرضنا وتدمير إرثنا الحضاري، حتى كانت نهاية الغزاة المغول في معركة " عين جالوت " الخالدة . إن حروباً استمرت قرنين من الزمن هما القرنان السادس والسابع، وغزواً استيطانياً مريعاً قد دَمَّرَ دونما شك الكثير من موروثنا الأدبي والعلمي والحضاري ومع إطلالة القرن الثامن الهجري أدرك الأدباء والعلماء والمؤرخون العرب المسلمون أهمية الحفاظ على هذا التراث العربي الإسلامي العظيم، فنَّهَدُوا إلى تصنيف موسوعات كبرى وفنون علمية حفاظاً عليه من الضياع والتبديد، وهكذا بدأ عصر الموسوعات والمتون العلمية والشروح على المتون، وهي السمات البارزة في النتاج الأدبي والفكري خلال القرن الثامن الهجري، مؤمنين بضرورة انتفاع الخلف من معارف السلف وما أبدعته عقولهم، وليقوموا هم بتطوير ما وصلهم شرحاً وتفسيراً .

وأنا في الأصل رجل قانون لا أُلقي الكلام على عواهنه، وإنما أعضده بالدليل والحجة والبرهان، من أجل ذلك سأبسط صورة الحركة الفكرية في القرن الثامن الهجري ليتضح بالدليل العلمي خطأ تسمية هذا القرن والقرن الذي سبقه بـ " الفترة المظلمة " .

فأما أنه قرن الموسوعات الكبرى فحسبنا شاهداً عليه:

أولاً: موسوعة "نهاية الأرب في فنون الأدب" لأحمد بن عبد الوهاب النويري القريشي (ت ٧٣٣هـ) وقد طبع منه بمصر حتى الآن أكثر من ثلاثين مجلداً.

ثانياً : موسوعة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لأحمد بن يحيى بن فضل العمري (ت ٧٤٩هـ)، وهو في الأصل كتاب في الجغرافية وتقويم البلدان، لكنه تضمن كتباً مبسوبة في التاريخ والتراجم ومختار الشعر والكلام على النبات والحيوان والإنسان، فهي موسوعة لا غنى لباحث في الآداب عنها . وقد طبعها بالتصوير المستعرب التركي العلامة فؤاد سزكين في بضعة وعشرين مجلداً.

ثالثاً : موسوعة "مباهج الفكر ومناهج العبر" لمحمد بن إبراهيم الأنصاري الشهير بالوطواط (ت ٧١٨هـ) . وهي موسوعة وقعت في أربعة مجلدات، خصص الأول للسماء والكواكب والآثار والأيام، والثاني : للأرض، والثالث للحيوان والرابع للنبات .

وما زالت هذه الموسوعة مخطوطة حتى اليوم .

والقرن الثامن أيضاً كان قرن "المتون العلمية" المتخصصة . واكتفي هنا بذكر بعضها مما صنفه العراقيون من هذه المتون:

١- "الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسب البديع" لصفى الدين الحلّي (ت ٧٥٠هـ) وهي منظومة في مدح الرسول الأعظم تضمّ مائة وخمسة وأربعين بيتاً في البحر البسيط وتشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعاً من محاسن البديع . وهي تمثل استدراكاً رائعاً على كتاب "تحرير التحرير" لابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، وقد شرحها ناظمها وطبع المتن والشرح بتدقيق نسيب نشاوي في دمشق سنة ١٩٨٣ .

٢- منظومة "لوامع الأنوار في نظم غريب الموطأ وصحيح مسلم" لابن رضوان الموصلي محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٧٧٤هـ) • ونسخة المؤلف ما زالت مخطوطة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد.

٣- " نهج الرشاد في نظم الاعتقاد " ليوسف بن محمد العبادي العقيلي السُرْمَرِي (ت ٧٧٦هـ) وهي أرجوزة في الفقه الحنبلي، نشرتها محققة في العدد الأول من مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية- بغداد ١٩٩٣ • ولهذا العالم متن منظوم آخر في ألف بيت عنوانه " نظم الغريب في علم الحديث ".

٤- منظومة " أنيس الغريب وجليس الأريب " وهي في غريب القرآن، ومنها تحقیقات لغوية باللغة الأهمية، نظمها نصر الله أحمد بن محمد التستري البغدادي المعروف بالجلال البغدادي (٧٣٣-٨١٢ هـ) وكانت منه مخطوطة بمكتبة المرحوم عباس العزاوي.

٥- ألفية في الخط والكتابة عنوانها " العناية الريانية في الطريقة الشعبانية " وألفية في النحو عنوانها " كفاية الغلام في إعراب الكلام " وألفية في العروض والقوافي عنوانها " الوجه الجميل في علم الخليل " • هذه الألفيات الثلاث نظمها زين الدين شعبان بن محمد الآثاري القرشي الموصلي مولدا المصري مدفناً (٧٦٥-٨٢٨هـ) وكلها مما نظمها في القرن الثامن الهجري حسبما وجدت في مخطوطاتها • وكنت نشرت ألفية الخط في بغداد سنة ١٩٧٩، وألفية النحو في بيروت سنة ١٩٨٧ بمشاركة أخي الدكتور زهير زاهد، وألفية العروض والقوافي في بيروت سنة ١٩٩٧ •

٦- منظومة في القراءات على وزن الشاطبية، ونظم " النافع " في الفقه وكلاهما لفخر الدين بن النصيح العراقي (ت ٧٥٥ هـ) •

٧- " أرجوزة الأنغام " وهي منظومة في الموسيقى نظمها بدر الدين محمد بن على الأربلي سنة ٧٢٩هـ، ونشرها المرحوم عباس العزاوي في كتابه "الموسيقى العراقية".

٨- " إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد " لمحمد بن إبراهيم الأنصاري السنجاري الشهير بابن الأكفاني (ت ٧٤٩ هـ) - نشرها الشيخ طاهر الجزائري - بيروت ١٩٠٤.

٩- الرسالة العضدية في الوضع لعبد الرحمن بن أحمد الأيجي (ت ٧٥٦ هـ)، وهي متن علمي يعين ألفاظ اللغة من حيث الوضع.

ومن غير العراقيين:

١٠- عبد الله بن يوسف بن أحمد الشهير بابن هشام (٧٠٨-٧٦١هـ) ومولده ووفاته بمصر. قال ابن خلدون : ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه. من تصانيفه المطبوعة: "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" و" أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك" و" موقد الأذهان وموقظ الوسنان " وشذور الذهب في معرفة كلام العرب " و" الإعراب عن قواعد الإعراب " و" قطر الندى وبلّ والصدى " و" اعتراض الشرط على الشرط " و" إقامة الدليل على صحة التمثيل وفساد التأويل" و" تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد " و" الجامع الصغير في النحو " و" شرح قصيدة بانث سعاد " و" شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية" و" فوح الشذا بمسألة كذا " و مسألة الحكمة في تذكير قريب في قوله تعالى " (إن رحمة الله قريب من المحسنين) " و" المسائل السفيرية في النحو " و" مسائل في إعراب القرآن ".

١١- ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٧٦٩ هـ). وكان إماماً في النحو والبلاغة وله " شرح ألفية ابن مالك " وبه اشتهر.

وانماز القرن الثامن أيضاً، بأنه القرن الذي صُنِّفَتْ فيه أكبر موسوعات التراجم والسير في المكتبة على الإطلاق . فيه صَنَّف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٧٦هـ) موسوعته الضخمة " الوافي بالوفيات " وقد طبع منها حتى اليوم أكثر من عشرين جزءاً.

وفيه صَنَّف محمد بن أحمد بن الذهبي (ت ٧٤٨هـ) موسوعته المعنونة " سير أعلام النبلاء " وقد طبعت في خمسة وعشرين مجلداً وموسوعته الصغرى " العبر في خبر من غبر " في خمسة أجزاء

وفيه صَنَّف محمد بن شاعر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) موسوعته: " فوات الوفيات " وقد حققها إحسان عباس وأخرجها في خمسة أجزاء. و " عيون التواريخ " و هو كتاب تراجم أيضاً نشرت منه المؤرخة نبيلة عبد المنعم عدة أجزاء بعضها بالمشاركة، وما زال الباقي وهو الأكثر ينتظر النشر .

إن هذه الموسوعات وإن كانت كتب سير وتراجم إلا أنها طفحت بنفائس الشعر والنثر والأخبار الأدبية، فهي كتب تاريخ وأدب دون شك. ولأبد لنا ونحن في معرض الحديث عن موسوعات التراجم والسير المصنفة في القرن الثامن أن نشير إلى أن ابن الفوطي عبد الرزاق بن أحمد الشيباني (٦٤٢-٧٢٣هـ) صَنَّف في القرن المذكور أوسع معاجم الألقاب: قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ما نصه: " كتب من التواريخ ما لا يوصف و مصنفاته وقُرُ بعير . ثم عمل تاريخاً في خمسين مجلداً أسماه " مجمع الآداب في معجم الأسماء على معجم الألقاب " . وهذا المعجم العجيب شاء القدر أن يسلم الجزء الرابع منه، فنشره العلامة مصطفى جواد بدمشق في أربعة مجلدات ضخام، فكيف كان الأمر لو وصلنا المعجم كاملاً؟ ثم إن أوفى موسوعة في أسماء رجال الحديث صَنَّفها الحافظ يوسف المزي (ت ٧٤٢هـ) في هذا القرن بعنوان " تهذيب الكمال في أسماء الرجال " وقد طبعه بشار عواد معروف في خمسة وثلاثين مجلداً.

وانماز هذا القرن أيضا بنهود جمهرة من مؤرخيه إلى كتابة تواريخهم فيه، فكان ممن طبعت تواريخه : الذهبي وموسوعته " تاريخ دول الإسلام " حققه عبد السلام التدمري، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) وتاريخه " البداية والنهاية " وعبد الله اسعد اليافعي (ت ٧٦٨هـ) وتاريخه " مرآة الجنات "، والأشرف الغساني (ت ٨٠٣هـ) وتاريخه " العسجد المسبوك " وابن الوردي عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ) وتاريخه " تنمة المختصر في أخبار البشر ". وابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) وتاريخه " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ". هذه التواريخ المطبوعة أشهر من أن أفصل القول فيها، وكلها من نتاج القرن الثامن الهجري.

أكثر من هذا أن جُلَّ " كتب الطبقات " صُنِّفت في هذا القرن ومنها:

طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١هـ)، وطبقات الشافعية الصغرى للأسنوي (ت ٧٧٢هـ) والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي (ت ٧٩٩هـ) في تراجم المالكية، والجواهر المضية في طبقات الحنفية لعبد القادر بن أبي الوفاء القرشي الحنفي (ت ٧٧٥هـ) والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب عبد الرحمن بن أحمد البغدادي (ت ٧٩٥هـ)، كلها صُنِّفت في القرن الثامن .

وفي ميدان البلاغة صَنَّف جلال الدين القزويني كتابيه : تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي والإيضاح في علوم البلاغة، ونالا شهرة واسعة حتى يومنا هذا. ومصنفهما واسمه محمد بن عبد الرحمن لم يكن أعجماً حسبما توهم نسبته، وإنما هو عربي من بني عجل موصل المولد وتوفي في دمشق سنة ٧٣٩هـ .

قلت أن القرن الثامن هو قرن الموسوعات الكبرى وقرن المتون العلمية المنظومة وقرن كتب التاريخ والطبقات الشهيرة، وأضيف إنه قرن " الشروح المبسطة على النصوص التراثية المهمة " و أمثل لذلك: بألفية ابن مالك، فقد شرحها عالمان جليلان من رجال هذا القرن هما: ابن عقيل وابن هشام وقد مرَّ ذكرهما .

وأُمثِّل لذلك أيضاً: بالغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي، وبتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي أيضاً • وبسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن ثُبَّاتة المصري (ت ٧٦٨هـ) •

وبسبيل بنا الحديث إلى معاجم اللغة العربية لنجد:

أن ابن منظور الإفريقي التونسي (ت ٧١١هـ) صَنَّف لسان العرب، وهو أضخم معاجم العربية وملاه بالشواهد الشعرية مما لا مثيل له في بقية المعاجم السابقة عليه، صَنَّفه في هذا القرن. وكذلك صنع أحمد بن محمد الفيومي (ت ٧٧٠هـ) معجمه "المصباح المنير" في القرن الثامن أيضاً، وكذلك صنع الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ) قاموسه المحيط فيه أيضاً.

وثمة كلمة تخص الشعر العربي بالذات: إن كتب المختارات الشعرية ابتداءً من المفضليات فالأصمعيات، فالمختارات التي اصطلح على تسميتها بالحماسات مثل حماسة أبي تمام وحماسة البحتري والشجري والزوزني والبصري، وكتب المختارات الشعرية التي سميت بأسماء أخرى مثل منتهى الطلب والتذكرة السعدية والتذكرة الفخرية • كل هذه المختارات والحماسات والتذكرات ليس فيها من " الشعر الصافي " كما يسميه لامرتين، وهو الشعر الخالد غير المرتبط بالأشخاص أو الأحداث أو المناسبات إلا القليل • لكن هذا القرن انماز بكتاب " مختارات شعرية " كان كلّه من الشعر الصافي الخالد عبر الزمن، وأعني به كتاب " حقائق الأنوار وبدائع الأشعار " لجنيد بن محمود بن محمد الذي انتهى من تصنيفه سنة ٧٩٠هـ • لقد اختار مصنفه أكثر من ثمانمائة مقطعة تُلثها في الربيع ومظاهره وتُلثها في وصف الأزهار زهرة زهرة وتُلثها في وصف الثمار ثمرة ثمرة.

وقد أسعدني الحظ بتحقيق هذا الكتاب ونشره في بيروت سنة ١٩٩٥، بعد معاناة استمرت عشرين عاماً معتمداً نسخة مخطوطة فريدة في الدنيا .

وأضيف أن المكتبة الشعرية العربية تعتز بكتب التشبيهات، وقد طبعت منها ثلاثة: تشبيهات ابن أبي عون إبراهيم بن محمد (ت ٣٢٢هـ) بتحقيق محمد عبد المعيد خان، وغرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات لابن ظافر الأزدي (٦٢٣هـ) بتحقيق مصطفى الصاوي وتشبيهات أهل الأندلس لابن الكتاني (ت في حدود ٤٢٠هـ) بتحقيق إحسان عباس، لكن القرن الثامن هذا خلف لنا أوسع وأمتع كتب التشبيهات الشعرية وعنوانه " الكشف والتنبيه عن الوصف والتنشيب " صنفه الصفدي . وقد حققته عبر عقدين من السنين ودفعته إلى المطبعة. جدير بالذكر أن أدباء الأندلس وهم يرون تساقط المدن الأندلسية بأيدي القشتاليين الإسبان، بادروا إلى تصنيف الموسوعات في شتى فنون الأدب وأكتفي الإشارة إلى موسوعتين من كتب المختارات الشعرية هما : جيش التوشيح للسان الدين بن الخطيب ت (٧٦هـ) و (عدة الجليس) لابن بشري الغرناطي، وكلاهما من وفيات القرن الثامن . وقد ضم كل كتاب منهما مجموعة متميزة من الموشحات الأندلسية.

هذا عدا كتاب " الإحاطة في أخبار غرناطة " وهو كتاب تراجم وسير طبعت منه أجزاء أربعة.

لقد كان عبد العزيز بن سرايا الطائي الحلبي الشهير بصفي الدين (ت ٧٥٠هـ)، أبرز شعراء القرن الثامن الهجري على امتداد الوطن العربي . وكان شاعراً كبيراً ومصنفاً شهيراً أيضاً. أما أنه شاعر كبير فيشهد على ذلك ديوانه الضخم الذي لم يطبع حتى الآن طبعة علمية. وأما أنه مصنف شهير فذاك ما تدل عليه كتبه الثلاثة:

الأول: العاقل الحالي والمرخص الغالي: وقد نشره المستشرق ولهم هونرباخ في ويسبادن بألمانيا سنة ١٩٥٥ ثم أعاد نشره صديقنا حسين نصار في مصر ١٩٨١ ثم أعيد نشر طبعة حسين نصار في بغداد ايضاً . وقد خصه صفي

الدين بالشعر الملحون: الزجل والمواليا والكان وكان والقوما. وهو أهم كتاب قديم تعرض لهذه الفنون • لكنه لم يدرس حتى الآن دراسة علمية تليق به •

والثاني: مخطوطة كتابه " المثالث والمثاني في المعالي والمعاني " ومن نسخة في دمشق وأخرى في التيمورية بالقاهرة، ومازال الكتاب يحن إلى التحقيق والنشر •

والثالث: " شرح الكافية البديعية " التي نشرت محققة كما ذكرنا فيما تقدم لكنها لم تدرس حتى اليوم دراسة علمية •

ويبقى الحديث بعد هذا عن النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري •

إن النقد الأدبي والتأريخ له قد تحولوا بعد غياب عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) إلى علم يصوغه المنطق وتغذيه الفاسقة حتى استحال إلى جملة من القواعد الجافة غاب معها الذوق السليم • وكان ظهور ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ) ومثله السائر " بمثابة انتفاضة جديدة للنقد الادبي • ثم عاد النقد بعده إلى رقدته •

حتى إذا جاء الصفدي في القرن الثامن أعاد للنقد الأدبي نكهته وروحه حين جعل للذوق الأدبي مكانته الرفيعة في العمل النقدي • وقد جسّد آراءه هذه في ثلاثة كتب:

الغيث المسجم في شرح لامية العجم - ولم يطبع حتى اليوم طبعة علمية •
ونصرة الثائر على المثل السائر - وقد طبع بتحقيق محمد علي سلطاني طبعة علمية •

والثالث: كتاب " الاقتصار على جواهر السلك في الانتصار لابن سناء الملك " وهو مخطوط، حققته لأول مرة بمشاركة الدكتورة السيدة ظمياء محمد عباس وهو في طريقه إلى القراء إن شاء الله •

وتمثل هذه الكتب الثلاثة قمة تطور النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري.

هذه أهم سمات العطاء الأدبي والفكري في القرن الثامن الهجري. وبعد: فهل يصح بعد هذا كله القول: إن القرن الثامن الهجري هو من قرون الفترة المظلمة؟ وهل يصح أن ننظر إلى الحالة الأدبية والفكرية بالمنظار السياسي وأن نقيسها عليه؟